

المؤسسات التعليمية في مدينة قسنطينة العثمانية -دراسة أثرية-

Educational institutions in the Ottoman city of Constantine, an archaeological study

1- بلوط عمر*، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2 (الجزائر)

omar.bellout@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2022 /11/11 تاريخ القبول: 2023 /04/02 تاريخ النشر: 2023 /06/04

ملخص باللغة العربية:

نتناول في هذا المقال المدارس والزوايا في مدينة قسنطينة خلال الفترة العثمانية، والتي تعتبر أهم المنشآت التعليمية المنتشرة خلال تلك الفترة، والتي لعبت دورا مهما في تقديم العلوم والمعارف وتطور الحضارة. من أجل التعرف على نظامها المعماري كتلة وتخطيطا وأقسامها، وعناصرها الفنية والزخرفية وغيرها تتمحور الإشكالية الرئيسية للموضوع حول محاولة تسليط ضوء على هذه المؤسسة التعليمية، وهل ساهمت المؤسسات التعليمية في نشر العلوم والوعي عند الشعب الجزائري في الفترة العثمانية؟ وما هي أهم المكونات المعمارية لمدارس والزوايا؟ وقد أعتمدنا على الجانب التاريخي من جهة، والدراسة الميدانية من جهة ثانية من أجل حصر وتعداد هذه المؤسسات وأماكن توزيعها في المدينة، مع التطرق إلى تعريف الزوايا والمدارس ونشأتها وتخطيطها المعماري، وأهم هذه المنشآت في مدينة قسنطينة، ودراسة نماذج مازالت قائمة غ ملى اليوم دراسة أثرية. وقد توصلنا إلى بعض النتائج كمساهمة المدارس والزوايا مساهمة فعالة في نشر الوعي وبث الإشعاع العلمي داخل المجتمع، وذلك من خلال النهوض بالحركة التعليمية، كما إعتد الفنان على العناصر المعمارية في إضفاء مظهر جمالي على المدارس والزوايا ، وخيرا والتجديدات المعمارية والتأثيرات الأجنبية في المجال الفني.

كلمات مفتاحية: مدينة قسنطينة، الفترة العثمانية، المؤسسات التعليمية، الزوايا والمدارس، دراسة أثرية.

*- المؤلف المرسل

Abstract

In this article, we discuss the Zawias and Madrassas in the city of Constantine during the Ottoman period, which are considered the most important educational facilities deployed during that period, and which played an important role in providing science and knowledge and the development of civilization. In order to identify its architectural system mass, planning and sections, and its artistic, decorative and other elements, the main problematic of the topic revolves around the attempt to shed light on this educational institution, and did educational institutions contribute to the dissemination of science and awareness among the Algerian people during the Ottoman period? What are the most important architectural components of Madrassas and Zawias

Keywords: Constantine, the Ottoman period, educational institution, Zawia and Madrassa, archaeological study

مقدمة

تعتبر المدارس والزوايا إحدى المنشآت المعمارية المهمة في دراسة الحضارة الإسلامية كمؤسسة علمية وثقافية لعبت دورا مهما في تقديم العلوم والمعارف وتطور الحضارة. وانطلاقا من هذه الزاوية فإن دراسة هذا النوع من المؤسسات في الفترة العثمانية في جانبها الأثري يجعلنا نقف على نظامها المعماري كتلة وتخطيطا وأقساماً، وعناصر فنية زخرفية، وهذا يرتبط بالمدرسة ومن جهة أخرى التدريس نفسه من حيث أنواعه ومواده ومحتواه وبرامجه وطرقه وغير ذلك من الجوانب المتعلقة بالمستويات العلمية.

تتميز عمارة المدارس والزوايا بصفة عامة بأهمية كبيرة، حيث تقوم شاهدا ماديا ودليلا واضحا على وسائل التعليم وأماكنه، وكذا مكانته في الفترة العثمانية وبالتحديد بقسنطينة وتعتبر تلك المباني عن نمط معماري خاص بما احتوت عليه من مكونات معمارية وتعدد مواد بنائها.

تتمحور الإشكالية الرئيسية للموضوع حول محاولة تسليط ضوء على هذه المؤسسة التعليمية، وهل ساهمت المؤسسات التعليمية في نشر العلوم والوعي عند الشعب الجزائري في الفترة العثمانية؟ وما هي أهم المكونات المعمارية لمدارس والزوايا؟.

أولاً: مفاهيم عامة

1- المدارس في الإسلام:

درس الشيء أي قرأه ودارست بمعنى ذاكرت ودرست الصورة حفظتها، والمدارس الموضع الذي يدرس فيه أو البيت الذي يدرس فيه القرآن الكريم، أما في التعريف الإصطلاحي فالمدارس هي الأماكن والدور والمباني المنظمة، التي يقصدها طلاب العلم، ويتولى التدريس فيها معلمون وأساتذة وعلماء يكونون متفرقين، لقاء أرزاق تدور عليهم من طرف الدولة أو الجمعيات أو الأوقاف، يختارون وفق شروط علمية وتربوية، وهيئة التدريس هنا لا تختلف عن المسجد¹.

والمدرسة بناء يشه الجامع والدور السكنية، والأرباط، وهي مخصصة للدراسة في مجال معين، ولها نظام خاص، وتتميز عن الكتاب بميزتين: وهي أن الدراسة فيها منتظمة في صفوف، وأنها ذات مستوى أعلى تهدف إلى نشر المعرفة بإشراف من الدولة التي تنفق عليها وتوجهها، وكان تمويلها هو نفس تمويل المسجد والبيمارستان تقريبا، وتحبس لها الأوقاف وتقدم لها الصدقات².

حاول الكثير من الباحثين التأريخ لظهور المدارس في الإسلام بالبحث في الأصل اللغوي لكلمة "مدرسة"، ولم يكن أمامهم سوى رد الكلمة إلى أصلها الثلاثي "درس" إلا أنهم وجدوا لنفس الكلمة معاني متباينة لم يستطيعوا الربط بينهم، والواقع أنه لا يهمننا في هذا المقام سوى إيراد ما جاء به اللغويين من أنه "درس الكتاب يدرسه درسا بمعنى أن الكلمة لها علاقة بالعملية التعليمية³. والمدرسة كما عرفها المقرئ نقيلا هي، درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة والمدرس هو الموضع الذي يدرس فيه⁴

¹ - المقرئ تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، الجزء الثاني، 1987، القاهرة، ص 363.

² - إسماعيل سامي، معالم الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 312.

³ - أيمن شاهين سلام، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة لنيل الدكتوراه في شعبة التاريخ الإسلامي، جامعة طنطا، كلية الآداب، 1999، ص 19.

⁴ - المقرئ تقي الدين، مصدر سابق، ص 366.

لقد ظهرت المدارس في الإسلام كمؤسسات تربوية وتعليمية نتيجة للتطور الذي أصاب الحياة الدينية والثقافية في كثير من بلدان العالم الإسلامي، كما كان لتشجيع الأمراء والسلاطين والعلماء والأدباء على القيام بنشر الإسلام والثقافة العربية ولاسيما دعم المذاهب السني المعروفة أُنذاك لوقوف في وجه الفرق الدينية المختلفة¹، وإن إنشاء المدارس كان بداية في عهد جديد في تطوير العمارة الدينية الإسلامية من جهة، وفي ازدهار الحركة العلمية في الأقطار الإسلامية من جهة ثانية، والمدارس من حيث أنها كيان معماري تعد طراز مستحدثا بعد المساجد في العمارة الإسلامية².

أما في العهد العثماني فقد تأسست المدارس وبلغت شهرتها آفاقا بعيدة، وكانت تؤسس بجوار الجامع والمساجد وذلك لإرتباط العلم بالدين، بداخلها مصلى، وتتنوع معارفها وعلومها من العلوم الدينية التي تقوم على تحفيظ القرآن، وتفسيره وشرح الحديث والفقه والأدب مثل النحو، الصرف، البلاغة والعروض، القوافي، قواعد الإنشاء وهي الوسائل الكفيلة للمتعلم بالتحصيل والمرتبطة بالعلوم الدينية أما العلوم الطبيعية والتجريبية مثل الفلك، الحساب، الطب، الصيدلة، ففي العهد العثماني اسس صالح باي مدرسة سيدي الكتاني كما شيد مدرسة سيدي الأخضر التابعة للجامع الأخضر في قسنطينة لتعليم مختلف العلوم والفنون وقد شيد مدارس أخرى في عنابة، القل، جيجل وكان يلحق بها مكتبة ويوقف لها أوقاف المسجد³.

وقد إزدهر التعليم في الفترة العثمانية فكانت المدارس كثيرة، فقد كان البايات يؤسسون المدارس الابتدائية والثانوية، ومن أهم المدارس مدرسة القشاشية بالعاصمة، ومدرسة الأندلس في العاصمة، مدرسة شيخ البلاد بالعاصمة⁴. تواصل إنتشار المدارس خلال العصر العثماني لتشهد الجزائر بناء

¹ -فايزة بوخضار، مدارس المغرب الأوسط الزيانية والمرينية، دراسة تاريخية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2010، 2011، ص20.

² - محمد حمزة إسماعيل الحداد، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، كلية الآداب، جامعة الكويت، 2002، ص22.

³ - كمال خليل، المدارس الشرعية في الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحديث المعاصر، جامعة قسنطينة، 2007 2008، ص20.

⁴ - عبد الحليم طاهري، مدرسة صالح باي ومقبرته العائلية بحي سوق العصر بمدينة قسنطينة، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2008 2009، ص67.

العديد منها عبر مختلف المدن والمراكز العمرانية، حتى تجاوز عددها في بعض المدن المائة مدرسة، وقد كانت إما في شكل مدارس أو كتاتيب، وهي في مجملها تؤدي رسالة واحدة هي التعليم، إضافة إلى أن هذه الوظيفة كانت تقوم بها المساجد والزوايا أيضا. وقد كانت تبني من طرف مختلف طبقات المجتمع والسلطات الحاكمة كالباشوات والبايات والوقف عليها¹.

2-نشأة المدارس:

إن نشأة المدرسة في الحضارة الإسلامية تعود في الأساس إلى نشأة المسجد، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فدور المسجد كان شاملا فكريا، دينيا، سياسيا، روحيا، إقتصاديا وإجتماعيا²، موجهة لعامة الناس، فكان يقوم بدور المدرسة في تلقين تعاليم الدين الإسلامي وكذا تعلم الكتابة والقراءة، وتحفيظ القرآن الكريم، إلا أن تطور الحضارة العربية الإسلامية أدى إلى تطور العلوم واتساع المعارف، ولم يعد المسجد بشكله المعروف يستوعب هذا التطور، فكان لابد من إيجاد نمط توسعي أو حل لتلبية الحاجات التعليمية المتزايدة، فكانت المدرسة³، التي تضاربت الآراء حول نشأتها وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا الأمير نصر الدين بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها المدرسة السعدية.

وأشهر ما بنى في تلك الفترة هي المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قرر بها الفقهاء المعالم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك⁴ وشرع في بنائها في سنة سبع وخمسون وأربعمائة، وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسون وأربعمائة ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الفراءي⁴.

ونفهم من نص المقرئ أن أول مدرسة بنيت في الإسلام هي المدرسة البيهقية، والمعروف أن أبا بكر البيهقي الذي سميت المدرسة بإسمه توفي سنة 454هـ/1062م، فتكون هذه المدرسة قد بنيت قبل هذا التاريخ بـ 20 أو 30 سنة غير أنه جاء في كتاب الصفدي أنه بنيت في نيسابور مدرسة لأبي محمد بن

¹ - عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة عمرانية، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر2، معهد الآثار، 2010. ص318.

² - إسماعيل سامي، مرجع سابق، ص 312

³ - حسين أمين، "المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1983، ص 103.

⁴ - الزركلي خير الدين، معجم الأعلام، لأشهر الرجال و النساء من العرب والمتعربين والمستشرقين، مجلد3، دم، ص55.

الحسن بن فروك المتوفي سنة 406هـ/1015م، حيث ذكر أن هذه المدرسة أقدم عهدا من المدرسة البيهقية¹.

وفي عهد السلطان محمد الغزنوي نعرف أسماء لمدارس كالبيهقية والسعدية ومدرسة أبي إسحاق الإسفرائيني، وقد ورد إسم مدرسة في نص جنائزي عثر عليه أثناء البعثة الإيطالية التي قام بها بومباتشي، ولقد اتفق المؤرخون على اعتبار نيسابور الوطن الذي أنشأت فيه المدرسة وانتشرت فيه، فابن خلكان² يرى أن نظام الملك بنى المدارس والربط والمساجد في البلاد، وتعددت مدارسه في أواخر القرن 5هـ/11م، وقد جرت العادة أن تنسب المدرسة إلى منشئها فنقول المدرسة النظامية، نسبة للوزير نظام الملك والمستنصرية نسبة للخليفة العباسي المستنصر بالله (ت 647 هـ)³.

إذا فالمدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك ببغداد سنة (459هـ/1067م) تعد من النماذج الأولى الواضحة لإنشاء المدارس التي كانت تدرس الشافعي⁴، فقد أخذ ينشئ المدارس منذ توليه الوزارة (455 هـ/1003م) في بغداد ونيسابور وفي بلخ وأصفهان والموصل والبصرة وطبرستان وقيل أن له في كل مدينة مدرسة⁵، ومن المعروف أن المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر أواخر العصر الفاطمي، فشيدت في الإسكندرية أول مدرسة لتدريس المذهب المالكي سنة (532هـ/1137م) ع لى يد وزير الخليفة الفاطمي الحافظ بن رضوان، ثم تلتها مدرسة الشافعية في نفس المدينة بناها الوزير العادل سيف الدين بن السلار⁶ سنة (544هـ/1149م)¹، وبعد أن اعتلى صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد الخليفة الخليفة الفاطمي العاضد²، بنى مدرستين وهما "الناصرية والقمحية"³.

¹ - فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1819، ج.2، ص124-125.

² - الزركلي خير الدين، معجم الأعلام، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمتعربين والمستشرقين، مجلد3، ، ص212.

³ - جيدة أحمد خالد، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، 2001، ص86.

⁴ - الفقي عبد الرؤوف، معالم تاريخ الإسلام ، دار الفكر العربي، القاهرة، ص387.

⁵ - القران عبد الجليل، السياسة التعليمية للدولة الزيدانية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري قسنطينة، 2003-2004، ص68.

⁶ -ابن خلكان تقي الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة العربية بيروت، م3، ص416.

في العصر الأيوبي بنيت بمصر 25 مدرسة، منها 22 بالقاهرة، ومدرستان بالفيوم، وواحدة بالإسكندرية، ولم يتبق منها سوى مدرستان، هما دار الحديث الكاملية والمدرسة الصالحية⁴، وقد انتشرت بسوريا إنتشارا كبيرا خاصة في دمشق وحلب، إذ توجد 52 مدرسة بدمشق، و22 في حلب، توزعت على تدريس المذاهب السنية الأربعة (المذهب الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي)، ويعود أغلبها إلى القرن الثامن هجري والثالث عشر ميلادي، وكانت مخصصة للمذهب المالكي، وانتشر بناء المدارس في كل الإمبراطورية زمن السلاجقة والأتابكة، فشملت العراق سوريا والأناضول⁵.

لقد كان للسلاجقة الدور الهام لنشأة نظام المدارس، وخاصة في إيران والعراق، وكانوا أبطال هذه الحركة في المشرق، وهم سنة أرادوا مواجهة المذهب الشيعي والتصدي له وكان الوزير السلجوقي نظام الملك رائد هذه الحركة⁶.

يعتقد الباحثين في تاريخ المدارس الإسلامية أنها إبتكار سني ومنهم من يعتبرها بمثابة استحداثا شيعيا ولسنا هنا في معرض ترجيح احد الرأيين على آخر، بل أنه من الأولى أن نناقش ما اتفق عليه الفريقان بأن المدرسة، عمل مبتكر، ولسنا على إستعداد أن نتفق مع ذلك الرأيين على آخر، بل أنه من الأولى أن نناقش ما اتفق عليه الفريقان بأن المدرسة عمل مبتكر لقد ذكر المقريزي بخصوص نشأة المدارس بأن المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن معروفة في زمن الصحابة ولا التابعين، إنما حدث علمها

¹ - لعرج عبدالعزيز، المدارس الإسلامية، العصور، م6 دار الميرخ للنشر، لندن، 1991، ص117.

² - ابن خلكان تقي الدين أحمد، مصدر سابق، ص109.

³ - سامح كمال الدين، العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص22.

⁴ - محمد حمزة إسماعيل بن حداد، المجلد في الآثار والحضارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2006، ص554.

⁵ - نفسه، ص563.

⁶ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ج8، ص162-163.

بعد الأربعمائة من سنة هجرية وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور¹. وقد نجحت المدارس إلى حد كبير في سد الفراغات وملء الفجوات التي ظل يشكو منها التاريخ².

ويعتبر الوزير قوام الدين نظام الملك الطوسي الحسن علي أول من أنشأ المدارس فبنى مدرسة النظامية بغداد وشرع فيها، وفي القرن التاسع الهجري غلب تصميم المدرسة على المسجد حيث أنشئت العديد من المساجد على نمط المدرسة، بصرف النظر عن كونه خصصت لدراسة المذاهب، وكان يكتب عليها أحيانا مدرسة وأحيانا أخرى مسجد، وهذا ما يؤكد القول بأن هذه الأسماء تتعلق بوظيفة البناء لا بالبناء نفسه، حيث كانت تدل على الغرض من البناء وليس الطراز الذي يبنى عليه، وتلك المدارس كانت تدخل ضمن المنشآت الدينية، إذ كانت تنشأ لخدمة الدين.

ومن خلال النصوص التاريخية والأثرية التي أتت على ذكر المدارس، فإنها بيوت مخصصة لسكني الشيوخ والفقهاء والطلبة، فراعى أيضا وجود بيوت للعاملين والدراسين والمدرسين في المدرسة إضافة إلى قاعات الدراسة والمرافق الأخرى³.

2- تعريف الزوايا:

وتعني بمفهومها البسيط مكان إنزوى وخلوة للعباد والصالحين ففهمها يلتقي الشيخ لإقامة حلقات الذكر وقراءة وحفظ القرآن وبعض العلوم الدينية الأخرى. والزوايا في الأصل ركن البناء وفي اللغة "الزوايا" من الانزواء والأنطواء والبعد عن حياة العامة والأسواق ولعل هذا ما يفسر وجود أغلب الزوايا في البراري المهجورة البعيدة عن العمران⁴.

¹ - تقي الدين أحمد المقرئ، مصدر سابق، ص 363.

² - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2008، ص 83.

³ - خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2007، ص 128.

⁴ الطيب العماري، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر، مجلة العلوم الإنسانية الاجتماعية، العدد 15، 15، جامعة بسكرة، 2014، ص 127.

كلمة الزاوية تعني tekkie تيكي بالتركية وخونق، khaounak بالمصرية وخالثيرخان، kaleuter-khane في آسيا الوسطى خانق، khanak في الهند وهي تعني في الأصل ركن البناء تولدت لها معاني انزوى الناس بعضهم لبعض، إي تضامنوا وتألفوا واخذت الزاوية في شمال افريقيا معنى يطلق على بناء ديني شبيهة بمؤسسة تعليمية¹. والزاوية قد تكون ملكا لصاحبها يتوارثها أبنائه وأحفاده من بعد موته، يدفن فيها مع أبنائه وأبنائه²،

وقد أطلقت على منشآت التصوف عدة مصطلحات أشهرها ثلاثة وهي: الزاوية، الخانقاة، التكية، وقد اختلفت الآراء حول تفسير تلك المصطلحات الثلاثة غير أن مايعيننا في هذا المقام هو أنه لا يوجد خلاف بينها من حيث الوظيفة التي تؤديها، وعلى ذلك فإن هذه المصطلحات الثلاثة هي مرادفات لبعضها البعض، فالزاوية هي اللفظة العربية التي أطلقت على تلك المنشآت، والخانقاة هي اللفظة الفارسية، أما التكية فهي اللفظة التركية³، كانت الزاوية ملجأ لتفادي كل اختلاف قبلي، وحسما لكل صراع فتوي يخص تدبير شأن من شؤون الجماعة خاصة في البادية المغربية⁴.

وفي بلاد المغرب الإسلامي، فقد عرفت الزاوية تطورا وتداخلا في مفاهيمها أحيانا، إذ أطلقت في البداية على مسجد خاص بالطائفة الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء أي أنها مكان للعبادة وإيواء المتصوفة والفقراء، ثم عرفت في عهد الموحدين بدار الكرامة أما في عهد المرينيين فيشار إليها باسم دار الضياف.

والزاوية كهيكل عمراني هي محلات كثيرة لإقامة الزائرين والفقراء المتجربين وفيها قسم خاص للعجزة والمرضى والشيخوخ من المساكين من أتباع الطريق ويخص قسم منهم للنساء وفيها البيت الذي يسكن فيه الشيخ وأهل بيته وأولاده، وغرفة للصلاة والمحراب ضريح لأحد المرابطين أو ولي الأشراف⁵.

¹ - كمال خليل، مرجع سابق، ص20.

² - مراد حديبي، الزوايا التيجانية بالجنوب الجزائري، دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الأثار، ص69.

³ - محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص229.

⁴ - إبراهيم حركات، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، كلية الآداب، الجمعية المغربية، ط1، ص274.

⁵ - الطيب يوسف، الحضور الاجتماعي والسياسي للطرق الصوفية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث المعاصر، جامعة سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية، 2014 2015، ص 85.

4- نشأة الزوايا وتطورها:

لقد عرف العالم الإسلامي أول للزهد والتعبد على عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عندما بنى والي البصرة بالعراق بيتا لبعض المسلمين يتفرغون فيه للعبادة طوال اليوم والليل، ثم كانت الأربطة التي أنشئت على أطراف الدولة الإسلامية، حيث كان المسلمين يحسبون أنفسهم للجهاد والحراسة وتنفيذ خاصة في شمال إفريقيا كرباط المنستير، ورباط سوسة، وهي مرحلة تميزت بظهور التصوف الحقيقي القائم على الزهد والتقشف، ثم ظهرت كلمة خانقاه لأول مرة في النصوص العربية، في خراسان هي كلمة معربة عن الفارسية، ومعناها رباط الصوفية وفي النصف الأول من القرن 9هـ/3م، وعرفت الخانقاه مرحلة مهمة من مراحل التأسيس والتنظيم، وعرفت انتشارا كبيرا خاصة في مصر والعراق وسوريا، وارتبطت بالمذاهب الشافعي والحنفي، كما أنشأ السلاجقة البعض منها في دمشق في أواخر القرن 5هـ/11م، كما أنشأ صلاح الدين الأيوبي خانقاه.

في العهد المملوكي، استخدم لفظ الخانقاه بعكس معناها المعماري ووظيفتها الصوفية المشار إليها، وفي العهد العثماني ظهر مصطلح التكية، في تسميتها بالتكية مأخوذ من الاتكاء، أما الزاوية في بلاد المغرب الإسلامي فقد عرفت باسم دار الكرامة، وعرفت بعد ذلك عند المرينيين باسم دار الصرف، إشارة إلى الزاوية العظيمة التي بناها أبي عنان فارس المتوكل¹.

من بين مميزات العهد العثماني هو انتشار ظاهرة التصوف، التي برزت في الأرياف أكثر من المدن وهذا ما أدى بطريقة مباشرة إلى ظهور الزوايا التي أسسها رجال عرفوا بين الناس بالتصوف فأنشأ مراكز لإستقبال الزوار والأتباع، وقد عرفت هذه المراكز بالزوايا والتي احتلت المراتب الأولى من بين المراكز الثقافية من ناحية تثقيف المعوزين والفقراء وهي تتكون من مجموعة من الأبنية التي امتازت بطابعها المعماري الإسلامي وبنائه شبيه ببناء المدرسة.

كانت الزاوية في بداية عبارة عن رباطات، فقد كان المرابطون يقودون أبناءهم في الحروب ويطعمون المجاهدين في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء من أجل الدين حماية البلاد ويطعمون المجاهدين في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء ما نلاحظه أن بعض هذه الزوايا في أواخر العهد العثماني أصبحت مركز لتدريب الأتباع بهدف الثورة ضد السلطة، ويختلف موظفو الزوايا عن موظفي المساجد فالمسؤول الرئيسي عنها هو مؤسسها فهو يقوم بتدريس واستقبال الطلبة ويصلح بين الناس ويفتهم في الشؤون

¹ - مراد حديبي، مرجع سابق، ص 71-73.

الدينية ويحكم بينهم، وفي غيابه يتولى إدارة هذه الزاوية أبنائها أحفاده والزاوية لا تقتصر على المؤسس فقط بل تحتاج إلى منظمين ومؤذنين ومساعدين وكان لبعض الزوايا المدن مديرين يعينهم وكلاء الأوقاف العامة والخاصة¹.

وتزايد عدد الزوايا على مر السنين، وانتشرت إنتشارا كبيرا، فعمت كل جهات البلاد ، وعرفت بمرور الوقت تطورا كبيرا، فانفصلت عن المساجد، وأصبحت قائمة بذاتها، تستقبل الطلاب وتقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث والتوحيد والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والبلاغة كما تقدم للطلبة الطعام، وتوفر لهم الإقامة مجانا².

حلت الزاوية في الجزائر محل الرباط تدريجيا منذ القرن 15م واستمرت في التطور حتى استقرت وظائفها النهائية في العهد العثماني على يد الطرق الصوفية، والمرابطين، لهذا كان اسم الزاوية يطلق على مقر المرابط في حياته أو بعد مماته، وقد يكون أسسها بنفسه أو أسست على ضريحه، وتكون حملت اسم مؤسسها أو المنطقة المتواجدة بها أو إسم الولي الدفين بها، ولقد شهدت الزاوية في المغرب الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة، نمو سريعا وانتشارا واسعا³.

ثانيا: التخطيط المعماري للزوايا:

إذا عدنا الى تخطيط الزوايا بالجزائر التي تعود الى الفترة العثمانية، فإنها هي الأخرى لا تخرج عن هذه التقاليد، فهي في غالبيتها خالية من المئذنة على غرار زاوية سيدي عبد المؤمن، زاوية حنصالة، زاوية عبد الرحمن باش تارزي بقسنطينة⁴، أما فيما يخص تصميمها المعماري، فالزاوية أو الخانقاه، والمدرسة والزاوية، والقبة الزاوية، إلا أن هذه الأصناف لا توجد بينها فوارق كبيرة، فالزاوية في هذه النماذج جاء تخطيطها متأثرا بتخطيط عمارة المسجد أو المدرسة أو الضريح، فقد جمعت بين الصلوات الخمس والزاوية، مثل زاوية سيدي بن عبد المؤمن التي كانت في نفس الوقت مسجدا.

¹ - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، 1 دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 1998، ص ص، 263-272.

² - صالح مؤيد عقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر وتاريخها ونشاطها، ج1، مكتبة الشرق، بيروت، 2004، ص ص 303-304.

³ - رشيدة شدرى معمر، "الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة المعيار، عدد 49، جامعة البويرة، 2020، ص3.

⁴ - سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص270.

أما زاوية بن عبد الرحمن باش تارزي فان مختلف الوثائق والنصوص تجمع على أنها كانت زاوية دون أن تذكرها كمدرسة أو مسجد، لكن وجود الضريح بيت الصلاة بها وإلى جانب المحراب الذي لا يبعد عنها إلا بحوالي 3م دون أن يعزله عنه غير سياج خشبي لا يزيد ارتفاعه عن 1.50م، فإنه يمكن تصنيفها ضمن النوع الثالث وهو الخاص بالقبّة الزاوية، وعلى الرغم من وجود أضرحة بزاوية سيدي عبد المؤمن إلا أننا لا نجد لها في بيت الصلاة ولا في الصحن، ومن دون شك تأثر تخطيط هذه الزاوية بوظيفتها المزدوجة، فهي تتماشى مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يجيز الصلاة في الأضرحة¹.

أما بالنسبة لزاوية سيدي عبد المؤمن كان تخطيطها مشكلا من صحن أوسط مكشوف يلتف حوله رواق يمثل بيت الصلاة، وإلى جانب بيت الصلاة في الناحية الجنوبية الميضاة، وفي الطابق العلوي تلتف حول الصحن قاعة كبيرة بالجهة الجنوبية وثلاث غرف متعددة الأغراض والوظائف بالجهتين الشمالية والشرقية، في حين تستمر القبّة في علوها والتي تغطي جزءا من الرواق خلف الصحن بمقابل المحراب².

1- زاوية عبد الرحمن باش تارزي:

تقع بحومة الشارع من حي باب القنطرة وهي تفتح على شارع رئيسي كان يربط بين السوق التجاري ورحبة الصوف، وباب القنطرة ويعرف حاليا باسم شارع الإخوة عرفة، وقد جاء ذكر هذه الزاوية في مختلف الوثائق والنصوص التاريخية بصيغتين الأولى زاوية عبد الرحمن والثانية زاوية باش تارزي بنسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي لكننا لا ندري بسبب تسميتها بزاوية عبد الرحمن، على رغم من مؤسسها اسمه عبد الرحمن يرجع تأسيس هذه الزاوية إلى الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة بن مامش، المعروف بباش تارزي مؤسس الطريقة الرحمانية لا يوجد تاريخ محدد لبناء هذه الزاوية ترجع إلى أوائل القرن 13هـ/أواخر القرن 18م³.

تشكل الزاوية من مدخل رئيسي يقع بوسط الجدار الغربي يفتح على صحن حوله رواق من ثلاث جهات في شماله، توجد الميضاة في شرقه توجد ثلاثة قبور تم تغطيتها وتسوية أرضيتها. ومن الصحن

¹ - عاصم محمد رزق، خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ص 70.

² - محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 231.

³ - صالح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر وتاريخها ونشأتها، دار الغرب الإسلامي، ط2، ص 336 337.

يمكن الدخول الى بيت الصلاة عبر بابين من الخشب يتشكلان من مصرعين وبيت الصلاة ذو شكل قريب من المربع، يتشكل من ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة تحدها أربع دعامات وسطية فوقها عوارض خشبية وعلى هذه الدعامات تقوم قبة مركز بيت الصلاة تقابل المحراب في يسار المحراب يوجد ضريح مؤسس الزاوية، وقد عرفت تغييرات وتجديدات لم يسلم منها الى بيت الصلاة وقد مس تجديد الصحن والميضأة¹.



صورة تمثل مدخل زاوية باش تارزي

ويتشكل بيت الصلاة من ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، تحدها أربع دعامات وسطية، فوقها عوارض خشبية، وعلى هذه الدعامات تقوم قبة في مركز بيت الصلاة تقابل المحراب، في أسفلها حنايا ركنية مثلثة الشكل ومسطحة والقبة ثمانية الأضلاع زينت بزخارف قباب جامع سيدي الكتاني، أما الأجزاء المتبقية من بيت الصلاة، فهي مغطاة بألواح خشبية مسطحة من دون زخرفة، تعلوها سدة. وإلى اليسار من المحراب في الركن الشمالي الشرقي يوجد ضريح مؤسس الزاوية، يحيط به سياج من المشربيات وهي حديثة الصنع، ويعلو القبر تركيبة خشبية مستطيلة الشكل تحمل نقوشا نباتية

¹ - عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، ص 356 359.

وهندسية وكتابية سجل نسب الشيخ عبد الرحمن باش تارزي واسماء الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم¹.



صورة تمثل ضريح سيدي عبد الرحمان باش تارزي.

2-زاوية حنصالة:

وجدت عدة تغيرات وتجديدات التي تعرضت لها زاوية فقد غيرت الأبواب الخشبية والحوض والمراحيض في الميضاة والصحن وتمت تغطيته وتسقيفه وأستبدل فيه العمودان كانت معظم الجدران ببلاطات خزفية عصرية². تقع زاوية بمدينة قسنطينة، في نهج رواق السعيد رقم الباب 19، في موضع وسط بين الطريق الرابط بين الجامع الكبير ورحبة الصوف، وقد كانت تعرف باسم زاوية حنصالة رأو زاوية النجارين، فأما بالنسبة للاسم الثاني فهو نسبة إلى سوق النجارين الذي كانت تنفتح عليه الزاوية

¹ - معروز عبد الحق و درياس لخضر، جامع الكتابات الأثرية العربية، مطبعة سومر، ج1، الجزائر، 2000. ص54.

² - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 351-354.

خلال الفترة العثمانية، أما الإسم الأول هو مأخوذ نسبة الى الطريقة الصوفية التي كانت تتبعها والمتمثلة في الطريقة الحنصالية، وليس لدينا ما يشير بشكل صريح ودقيق إلى مؤسس وتاريخ بناء هذه الزاوية، إلا أنه يمكن القول من المؤكد أنها ترجع إلى فترة العثمانية وقد ترجع إلى فترة سابقة لحكم صالح باي، باعتبار أن أقدم ذكر لها جاء في القائمة المرفقة بدفتر أوقافه..



صورة تمثل إحدى أبواب زاوية حنصالية

تندمج الزاوية مع المباني من أربع جهات لا يظهر منها إلا جزء يقع في الطرف الشمالي من الضلع القبلي، حيث يقع المدخل، وفيه تظهر فتحة مستطيلة تنتهي بلوح خشبي يحمل زخارف كتابية وهندسية ونباتية، وفي أعلى المدخل توجد أية قرآنية (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وإلى اليمين منه توجد نافذة تطل على غرفة علوية بها شباك معدني مستحدث.

ويقع بيت الصلاة إلى الجنوب من الصحن، وهو في شكل قاعة مستطيلة، يتراوح عرضها بين 4.11م و4.40م، وطولها يصل إلى 8.65م، ويتم الدخول عبر باب في منتصف ضلعها الشمالي الشرقي وينفتح على الصحن، وعلى يمينه ويساره نافذتان شكلهما مستطيل.

وفي منتصف الضلع الجنوبي الشرقي يوجد محراب عرف تغييرات كبيرة على حساب إمام الزاوية وذلك بعد أعمال الترميم التي تعرضت لها، والمحراب في صورته الحالية عبارة عن تجويفة نصف دائرية ينتهي بقبة نصف دائرية خالية من الزخارف، ويحف من الجانبين عمودان يعلوهما عقد حصي، ويقع الصحن بين الميضأة وبیت الصلاة، وهو ذو شكل مستطيل، عرضه يتراوح بين 5.15م و5.90م وطوله بين 8.32م و7.16م ويتم الدخول إليه من باب فتح من الطرف الشرقي من هذا الجدار وإلى الشمال منه توجد نافذتان تنفتحان على الميضأة، وفي الضلع الشمالي الغربي درج صاعد. وإلى الطابق العلوي من الزاوية وفي نفس الجهة يوجد رواق مشكل من ثلاثة عقود مدببة تقوم على دعائم مربعة عرفت تغييرات عديدة بعد عملية الترميم، والصحن حالياً مغطى بعد أن كان في الأصل حسب إمام الزاوية من غير تغطية.



صورة تمثل زخرفة كتابية قوامها آية قرآنية بزاوية حنصالة.

تقع الميضأة بمقابل الزاوية، حيث يعقب هذا المدخل ممر متسع ينتهي باب في منتصف ضلعه الشمالي الغربي ينفتح على الميضأة، وهي مستطيلة الشكل عرضها يتراوح بين 1.55م و1.73م وطولها يصل إلى 5.79م، استحدث بها مرحاضان وحوض مستطيل. أما الطابق العلوي، عبارة عن أربع غرف تتوسطها ممرات وصحن، الغرفة الأولى توجد على يمين الصاعد من الصحن السفلي، يتم الوصول إليها عبر درج من ثلاث درجات يليه ممر طوله إلى حوالي 2م تليه الغرفة، وهي مستطيلة الشكل فتح في باب في ضلعها الشمالي الغربي ونافذة في منتصف الضلع الجنوبي الشرقي. ينتهي الرواق في طرفه الجنوبي الشرقي بباب يفضي إلى غرفة مستطيلة الشكل 3.21م و4.65م فتح في ضلعها الجنوبي الشرقي نافذة مستطيلة، وفي الجدار الجنوبي الغربي نافذة تطل على الصحن، وإلى اليسار منها توجد خزانة جدارية.

ويقابل السلم الصاعد باب يفضي إلى قسم الثاني يقع في نفس المستوى مع الطابق العلوي إلا أنه مشيد في طابق أرضي، وهو يتكون من فناء، وينفتح فناء على غرفتان بواسطة بابين، الغرفة الأولى تقع في الطرف الغربي والغرفة ككل ذات شكل مستطيل، من الشمال الغرفة الثانية هي الأخرى مستطيلة الشكل تنفتح على فناء باب¹.

ثالثا- المدارس:

1- مدرسة سيدي الكتاني:

تقع المدرسة سيدي الكتاني في الجزء الثاني لمدينة العتيقة أعلاها، قريبا من جسر سيدي المعلق، المؤدي إلى المستشفى الجامعي ابن باديس كذا محاذة السوق الشعبي المسمى سوق العصر، الذي سعى باحة بوهالي يحدها من الشمال دار الامام حاليا ومن الجنوب جامع سيدي كتاني فهي جزء مركب سيدي الكتاني.

أسس صالح باي مدرسة سيد الكتاني سنة 1202\1787م بالجانب الشرقي من الجامع المعروف سيدي الكتاني واشتهرت منذ تأسيسها باسم المدرسة الكتانية نسبة إلى ولي صالح اسمه الكتاني، دفن بتلك البقعة من أهل القرن 18هـ\18م وذلك لما جرت عليه العادة في ذلك الوقت على تسميت المساجد المدارس والزوايا².

وقبل تأسيس هذه المدرسة سبقها بناء المسجد سيدي الكتاني وهي مكمله لهذا المسجد وتعد امتدادا له، وحسب سجل صالح باي للأوقاف الذي تطرقت له الأستاذة قشي فاطمة الزهراء في أحد أبحاثها حول صالح باي، حيث كان هذا الباي كلما بنى مسجد إلا يلحق به مدرسة تكون مجاورة له، بدليل أنه في السنة الموالية لبناء هذه المدرسة، قام ببناء الجامع الحنفي بجوارها أيضا.

¹ - عبد القادر دحدوح، "الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني"، دراسة آثار الوطن العربي ، الجزائر، دت، ص 178.

² - عبد الحليم طاهري، مرجع سابق، ص 67.

أما العلماء المدرسين بهذه المدرسة فنذكر على سبيل المثال: الشيخ عبد القادر الراشدي الحنفي والشيخ شعبان بن جلول قاضي الحنفي¹، ولم يكتف بناء هذه المدرسة بل وسع اهتمامه بمختلف أحياء مدينة قسنطينة².

تتكون المدرسة من المدخل الرئيسي واحد يتم الدخول عن طريقه إلى المدرسة ويقع بالجهة الشرقية، كما يقابله نفس الاتجاه بينها سلالمة مكونة من أربع درجات وكما ذكرنا سابقا أن المدرسة مكلمة لمسجد، المدرسة بنيت متكونة من طابق واحد ويذكر أيضا متواجدة في نفس الطابق مقبرة صالح باي أي الطابق الأرضي، وتحتوي على قاعة الدروس التي تقع في الجهة الشرقية من الصحن لها بابا عرض فتحه 1.50م وهو مستطيل الشكل مزين بلاطات خزفية مربعة، أما القاعة فكانت على شكل مستطيل طول الضلع الشمالي 5.07م والجنوبي 5.10م والغربي 9.43م والشرقي 8.97م، وكانت الغرف للطلبة القادرين على السكن، أما الطلبة الذين لم يكونوا قادرين على السكن بالمدرسة أو غيرها من المدارس الأخرى، يأتون من القرى والأرياف المجاورة لقسنطينة، قد وفر لهم الإقامة عند العائلات القسنطينية، ويقرأ الطلبة كل يوم أربعة أحزاب من القرن، حزبين بعد الصلاة الصبح، وحزبين بعد صلاة العصر، ويحتمون في كل مرة بالابتهاال إلى الله والدعاء بالرحمة لمؤسس المدرسة، ولا يقبل في المدرسة إلا الشبان الحافظين للقران سواء كانوا من البادية أم من المدرسة المذهب الحنفي أو المالكي. كما لا يمكن لأي تلميذ داخلي أن ينام خارج المدرسة، إلا لعذر خطير أول زيارة أهله، وتكون أيام العطلة عشرين يوما، إذا لم يدخل التلميذ بعد هذا الأجل، لم يثبت أنه كان مريضا فإنه يطرد ويعطى مكانه لأحد الطلبة يزاولون الدروس، ولا يسمح للموظفين والطلبة الخارجين أن يقضوا الليل داخل المدرسة بأي عذر كان.³

يتميز صحن المدرسة الكتانية بأنه مربع الشكل طول ضلعه 8.29م يحيط به ثلاثة اروقة، يتوسط صحن المدرسة حوض رخامي به شجرة برتقال، وتوجد قاعة تدريس تعد من أهم عناصر المدرسة، تقع هذه القاعة في الطابق الأرضي شكلا منتظم الأضلاع، ويعتبر المحراب من أهم العناصر المعمارية في

¹ - محمد السعيد قاصري، "المدرسة الكتانية بقسنطينة صرح ثقافي يصارع النسيان" مجلة العصور الجديدة، العدد 18، قسنطينة، 2015، ص 155.

² - محمد الشريك، "جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم بالجزائر"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، العدد الثامن، جوان، 2018، ص 157.

³ - محمد السعيد قاصري، مرجع سابق، ص 8.

العمارة الإسلامية، وأيضاً توجد بها غرف الطلبة التي تتوزع على الحجرات، وأيضاً بها مقبرة تدعى مقبرة صالح باي نصل إليها من باب بالجدار الجنوبي وهذه المقبرة هي الشيء الوحيد الذي مازال على أصلاته {لم تحدث به تغييرات كبيرة} ، المقبرة تتواجد في مستوى أعلى من أرضية الصحن نصعد إليها بثلاث درجات توصلنا إلى باب مصنوع من الحديد هي بوابة أصلية يوجد بها هلال و صفيحة من النحاس مكتوب عليها مقبرة صالح باي ومساحة غرفة الأضرحة 30م أول ما نجده عند دخول من البوابة أربعة عشر قبر للقضاة والمعلمين و الذين كانوا بها وكذا قبر صالح باي وعائلته وأرضية القبر مغطاة بالرخام الأبيض¹.

2-مدرسة سيدي الأخضر:

تقع المدرسة بجوار الجامع في الجهة الشرقية منه وهي تعلو في جانبها الشمالي ميضأتها، وفي نصفها الجنوبي الحوانيت التي تفتح على الساباط الذي يربط بين نهج بن صغير عبد الوهاب المفتوح على رحبة الصوف، وقد كان في زمن الإستعمار الفرنسي وهذا الساباط يمر عبره الشارع كومب بينما كانت رحبة الصوف تدعى سباحة نبيللي. يرجع بناء المدرسة الى صالح باي (1207هـ\1792م) و الذي سبق أن قدمنا له ترجمة عن حياته².

كان تأسيس المدرسة بجوار الجامع في الجهة الشرقية منه، والتي كانت تعلو في جانبها الشمالي ميضأتها وتنتفتح على جانبها حوانيت، الذي يربط بين نهج سيدي الأخضر ونهج عبد الوهاب، وكانت توجد بها كتابات تأسيسه التي كانت تزين بوابة قاعة الدرس والتي انمحت مؤخراً، ولم يعد لها وجود وقال بأنها كانت على شكل شريط طوله 32.72م وعرضه 15سم وحفرت على الجص بخط نسخي تزينها أشكال هندسية من نجوم واوراق وأزهار بلون أصفر على أرضية زرقاء، وكان بقاعة الدرس كتابة تم إزالتها أثناء اشغال التجديد الي تعرضت لها المدرسة، يوجد بالجامع محراب فيها بلاطات وهي تقوم على أعمدة رخامية، بها بيت الصلاة فيه عدة نوافذ فتحت على الجدار الغربي أما المئذنة فهي مستقلة عن جدران الجامع تقع خارج الجدار الغربي، ويتصدر بيت الصلاة محراب نصف دائري تعلوها قبة في شكل محارة، وعلى شريط البلاطات توجد زخارف نباتية وهندسية، وأعمدة رخامية تعلوها كوابيل خشبية، ولكنها في الوقت الحالي تعرضت الى عملية ترميم وتجديد³، إن الزائر لمدرسة سيدي لخضر

¹ - عبد الحليم طاهري، مرجع سابق، ص 85.

² - عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص 327.

³ - رشيد بورويبة، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام، الجزائر، 1980، ص 128.

يدرك مباشرة الإضافات التي ألحقت بالعناصر الأصلية لأنها ظاهرة للعيان ومن السهل التعرف عليها فقد اقتطع من الصحن الرواق الشمالي ليستغل كمطبخ وجزء من قاعة الدرس استغلت كغرفة كما هدم المحراب الذي كان موجود في هذه القاعة وأزيلت الكتابة التأسيسية والتي من حسن الحظ حفظت لنا في الكتب، كما أضيفت أبواب ونوافذ جديدة وتم استحداث السقف الداخلي، أما بالنسبة للمخطط العام للمدرسة فإنه لم يتغير كثيرا.

رابعاً: الدراسة الأثرية:

1-التخطيط المعماري للمدارس:

تميز التخطيط المدرسة الكتانية بتكوينها من صحن أوسط مكشوف على الفضاء الخارجي تتوسطه نافورة رخامية وحولت في وقت سابق الى شجرة برتقال تحيط به أربعة أروقة تتشرف على الصحن بواسطة أعمدة متكونة من طابقين، وأراضي هو أول طابق وهذه الأبنية عبارة عن غرف للطلبة والأساتذة وكذا المطبخ وحمام أيضا وتوجد مقبرة دفن فيها أحمد باي مؤسس مدرسة سيدي الكتاني وأيضا مكان للصلاة¹.

أما مدرسة سيدي الأخضر فهي بجوار الجامع توجد بها ميضأة، توجد بها كتابات تأسيسية كانت تزين قاعات الدرس والتي أنمحت مؤخرا إلى أن المدرسة تعرضت الى عمليات التجديد فلم يبق منها شيء².

إن تخطيط المدارس العثمانية لم يخرج على التقاليد {التخطيط ذو الأربعة إيوانات}، فيما يتعلق بالمدارس فإننا نرى الأبنية الضخمة التي عرفناها على عهد السلاجقة وقد أستبدل تخطيطها بأخرى جديدة، ذات قدرة على مواجهة الاحتياجات العلمية التي يتطلبها العصر، والتي تتناسب مع ظروف التعليم في تلك المرحلة الجديدة الى جانب عمل تلك المدارس والمؤسسات لدراسة الدين الإسلامي وشرعياتها فإنها قامت بالعديد من المهام الاخرى كمعاهد لتعليم الطب وممارسة.

2-جرد المعالم الدينية بقسنطينة:

1-2 جرد المدارس:

¹-عبد العزيز محمد لعرج، "المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، دار الحكمة،

الجزائر، العدد الأول، 1421هـ/2001م، ص117.

²-عبد القادر دحدوح، مرجع سابق، ص327.

اسم المعلم	الموقع	المؤسس	حالة الحفظ
مدرسة الكتانية	يقع في السوق الشعبي المسمى سوق العصر ساحة بوهالي.	صالح باي(سنة 1137هـ/1725م).	رمت المدرسة وهي في حالة لا بأس بها.
مدرسة سيدي الأخضر	تقع في سوق العصر بجوار الجامع في الجهة الشرقية.	صالح باي(1193هـ /1779م).	المدرسة في حالة ترميم وتجديد.

جدول رقم 01: أهم مدارس مدينة قسنطينة.

2-2 جرد الزوايا:

اسم المعلم	الموقع	المؤسس	حالة الحفظ
زاوية عبد المؤمن.	تقع بشارع ملاح تنفتح على سويقة.	عبد المؤمن.	تعرضت لتغييرات وتجديدات
زاوية باش تارزي.	تقع بحومة الشارع الأخوة.	عبد الرحمان بن أحمد بن حمودة بن مامش المعروف بباش تارزي.	حالة سيئة لم يتبق منها سوى بعض عناصر معمارية.
زاوية حنصالة أو زاوية النجارين.	تقع بحي النجارين نهج رواق السعيد رقم الباب 19.	صالح باي.	هي في حالة جيدة وتعرضت لبعض التغييرات وذلك بعد الترميمات
زاوية ابن نعمون المعروفة باسم الزاوية التيجانية.	تقع بنهج السويقة ملاح سليمان رقم 67.	محمد الشريف بن نعمون.	تم هدمها.

زاوية بن راضون.	في حي البرادعيين.	راضون خوجة.	هدمت وأصبحت تابعة لوزارة العدل (محكمة)..
زاوية الفقون.	في حي الخرازين.	الشيخ عبد الكريم الفقون.	/
زاوية ابن محجوب.		يحي ابن محجوبة.	لم يبق منها سوى كتابات تذكارية على لوحة خشبية.
زاوية التلمساني.	تقع بنهج قسطنطيني.	حسن غاثم.	هدمت وأسس بعدها معبد لليهود ولم يبق منها إلا لوحة من الخشب محفوظة بمتحف المدينة لكن مفتشية الأوقاف بقسنطينة استعملتها كمطعم لتلاميذ المعهد الإسلامي.
زاوية سيدي راشد.	الحي العتيق تحت قنطرة سيدي راشد.	راشد.	حالة سيئة وأصبحت مهجورة

جدول رقم 02: يمثل أهم الزوايا بالمدينة.

خامسا: الدراسة التحليلية:

1-أنواع الخطوط المستعملة في المدارس:

1-1 -خط النسخي:

يعتبر من الخطوط العربية الأصيلة وسعي بالنسخ لأن الكتاب كانوا يستعملونه في نسخ المصاحف والكتب والمؤلفات، وهناك من يرى أن الوزير بن مقله وأخاه بن عبد الله هما أول من نقل هذا الخط من الكوفة، ومن الملاحظ تطور هذا الخط في القرنين الثالث والرابع الهجري، ولم ينقض القرن {6هـ/12م} حتى قل شأن الخطوط الكوفية سواء في كتابة المصاحف أو في النقوش على جدران المدارس

والمساجد، ومن العوامل المساعدة على إنتشار الخط النسخي في العالم الإسلامي بوجه خاص إقبال الناس على إستعماله بدلا عن الخط الكوفي¹.

2-1 - خط الثلث:

استخدم في معظم ما وصلنا من النقوش الكتابية في العهد العثماني، ولقد اختلف الكتاب في أصل التسمية وقد ظهر هذا الخط في القرن 7هـ/13م وسمي بذلك لأن حجمه يساوي حجم الخط الكوفي الحديث، شهدا خط الثلث تحسبا كبيرا عل يد الخطاطين والفنانين، حيث بلغ غاية الجودة عل أيديهم مما أتاح له الفرصة أن يحل محل الخط الكوفي في تزيين جدران المساجد، واهتمت المدرسة التركية بتحويله وتهذيبه فبلغ في العهد العثماني أقص درجات الجمال فاستعمل في تزيين المساجد والمدارس حيث أصبح الخطاط الذي لا يتقن هذا النوع من الخط لا يعتبر من أهل الفن².

2-الزخارف النباتية:

تعتبر الزخارف النباتية إحدى المواضيع الرئيسية التي لجأ إليها الفنان المسلم بتوجيه من العقيدة الإسلامية وقد أبدعوا فيها وطوروها في جميع الميادين، فقد رسم الفنان المسلم الأشجار والأزهار والسيقان والأوراق بعد أن حورها تحويرا فقدت معه شخصيتها كوحدات نباتية، سارت هذه الزخارف في سبيل التطوير والتجديد عبر العصور حتى وصلت بين يدي الفنان العثماني فاستعملها استعمالا واسعا³.

2-1- أ-الأزهار:

تعد الأزهار من العناصر الأساسية عند الفنان العثماني لأنه وجد في زهور ونباتات بلاده مصدرا غنيا يأخذ منه عناصر أسلوبه الجديد، إذ من العناصر المفضلة لدى العثمانيين والتي أكثر من استعمالها،

¹ - عبد الحليم طاهري، مرجع سابق، ص104.

² - خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص18.

³ - عبد العزيز محمود لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية في الجزائر، دراسة أثرية فنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1990، ص270.

تمتاز بلاطات هذه المدرسة بالتنوع وتشتمل أزهار القرنفل واللاله وأزهار بسيطة بالإضافة إلى أزهار أخرى مختلفة الأنواع الورود¹.

2-2-زهرة اللالة:

استخدم العثمانيون زهرة اللالة في مختلف الفنون الزخرفية المتواجدة في مدرسة الكتانية وهي زهرة خزامي التي ظهرت في القرنين 9-12هـ/15-18م، وقد استخدمت بكثرة في موضوعاتهم الزخرفية على الخزف وقد حافظت هذه الزهرة على مكانتها ثم انتقلت الى أقاليم الدولة العثمانية منها الجزائر واهتم العثمانيون بهذه الزهرة لما تحمله حروفها من تماثل مع حروف اسم الجلالة "الله" إضافة إلى جمال شكلها².

2-3-زهرة القرنفل:

يجعل موطنها الأصلي وتاريخها غامض بسبب نقص الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها، ويحتمل أنها جاءت من الصين أو إيران، أحب العثمانيون زهرة القرنفل وهي نوع الوحيد من الأزهار التي نافست زهرة اللالة واحتلت نفس المكانة التي احتلتها عندهم، ويمكن تعليل ذلك لسهولة تشكيلها وخضوعها للتحوير بطريقة زخرفية، كما يمكن الحصول على أشكال مختلفة بفضل شكل أوراقها اقتبس الأوروبيون هذه الزهرة من المنتجات العثمانية بفضل العلاقات التجارية بينهما وعم انتشارها واستخدامها في الفنون الزخرفية خاصة منها البلاطات الخزفية التي تزين بها المدرسة الكتانية ورسمت زهرة القرنفل هذه المربعات بأشكال مختلفة، كما ظهرت تختلف تماما عن الوصف الأول إذ رسمت بحجم كبير³.

3-الزخارف الهندسية:

¹ - محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العهد العثماني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص53.

² - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ج3، دار الرائد العربي، بيروت، 1041 هـ/1981م، ص150.

³ - حسن حمودة القاضي، فن الزخرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص84.

عرفت الزخرفة الهندسية الإسلامية بتنوعها وثرائها التشكيلي، باعتبارها عنصر أساسي من عناصر الزخرفة الإسلامية فاقت كل الفنون التي سبقتها في التنوع الذي عرفته وتتكون الزخرفة من الخطوط بأنواعها المختلفة، مستقيمة ومنكسرة ومنحنية ومظفرة، كما تتكون من أشكال مساحية من مربع ومستطيل ومعين ومثلث ودائرة وأشكال بيضوية إضافة إلى العقود بأنواعها المختلفة ضف إلى ذلك الأطباق النجمية والأشكال المضلعة .

1-3- الخط:

عنصر زخرفي وهو العنصر الأساسي في تكوين الوحدات الهندسية ومن مجموع البلاطات التي تزين المدرسة والمقبرة لم تمثل الخطوط بأنواعها زخارف قائمة بذاتها، وقد تنوعت الخطوط في هذه البلاطات وأكثرها استعمالاً:

2-3- الخط المستقيم:

استعمل في بعض التجميعات في تقسيم العناصر الهندسية منها المضلعات والدوائر نجد أن الخط يقسم البلاطة إلى نصفين متساوين، كما نجد هذه الخطوط داخل العناصر النباتية ونجدها ظاهرة للعيان وهي عبارة عن خطوط مستقيمة تقسم البلاطة إلى مستطيلات صغيرة.

3-3- الخط المقوس:

رسمت هذه الخطوط في بلاطين، جاءت على شكل مربع غير منتظم وشكلت خطوطه التحديدية بعناصر نباتية ولقد اقتبست الخطوط المقوسة في العمارة الكلاسيكية ذات الزخارف القالبية الإغريقية¹.

1- الأشكال المساحية:

قليلة في زخارف بلاطات المدرسة والمقبرة، وتشتمل على مربعات والمثلثات والدوائر وأنصافها وكذلك العناصر البيضوية:

1-4 المربعات:

¹ - عبد الحليم طاهري، مرجع سابق، ص 167 168.

يمكن تحديد كل أشكال المضلعات المختلفة من المربع بفضل ترتيب أضلاعه التي تسمح بإبداع أشكال كثيرة ومختلفة. وعرف إنتشارا واسعا في المباني الدينية بالجزائر، كقصر مصطفى باشا وقصر حسن باشا البلاطات إلى إيطاليا.

2-4- المثلثات:

من ضمن التصميمات التي تعتمد على المثلث كعنصر زخرفي قائم بذاته ما نجده في بلاطات كما نجد في البلاطة معين مشكل من المثلثات.

3-4- الدوائر:

تعطي الدائرة عند تقسيمها أشكال أخرى كالمربعات والمثلثات، فقد جاءت الدوائر في أغلب البلاطات التي تزخر في المدرسة والمقبرة بحيث تقوم كعنصر مركزي للتجمعية، ويقوم على أساسها التصميم الزخرفي العام.

5 - الزخارف الحيوانية:

تعتبر الزخارف الحيوانية في الفترة الإسلامية قليلة مقارنة بالفنون القديمة حيث لم تستعمل إلا في نطاق ضيق بأسلوب محوري، لم يرد هذا النوع من الزخارف إلا في بلاطة واحدة تكسو جدران الأروقة¹.

شهد التعليم خلال العهد العثماني نظام معتمدا من طرف الدولة، خاصة من حيث المواد المدرسة، ومستويات التعليم، ومراكز الإشعاع الثقافي، ويضم عدة مؤسسات تعليمية: الزوايا المدارس والمساجد، إن هذا النشاط التعليمي الخاص الذي تثبته الجهود الفردية، والمؤسسات الخيرية من كتاتيب وزوايا ومساجد، أن العثمانيين لم يهتموا بالجانب الثقافي بقدر اهتمامهم بجوانب الحياة الأخرى، وربما كانت السلطة العثمانية لا ترى في التنمية الثقافية التي تتصل اتصالا وثيقا بالمستوى التعليمي في البلاد طموحا يعنيتها، بقدر ما كان يعنيتها التحكم في ميادين الحياة الأخرى خاصة السياسة والاقتصاد².

¹- عبد الحليم طاهري، مرجع سابق، ص 200.

²- صليحة بردي، "الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني دراسة الواقع والمعطيات"،

مجلة الذاكرة، العدد 11، جامعة الجيلالي عين الدفلى، كلية الآداب واللغات، 2018، ص 130.

خاتمة:

تعتبر المدارس والزوايا من أهم المراكز التعليمية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، ومن أبرز النتائج التي توصلنا إليها ما يلي:

- ساهمت المدارس والزوايا مساهمة فعالة في نشر الوعي وبث الإشعاع العلمي داخل المجتمع، وذلك من خلال النهوض بالحركة التعليمية، ويعد التعليم من العوامل الأساسية الهامة التي تدفع عجلة الحركة الفكرية نحو التقدم والازدهار ودعم صالح باي لهذه المراكز.
- ومن بين أهم نماذج المدروسة خلال الفترة العثمانية هي مدرسة سيدي الكتاني التي أسسها صالح باي وايضا مدرسة سيدي الأخضر، ووجود زوايا دينية أيضا كانت شائعة بكثرة تمت دراستها من طرف الباحثين.
- وقد اعتمد الفنان على العناصر المعمارية في إضفاء مظهر جمالي على المدارس والزوايا والتي تتمثل في الزخارف النباتية والهندسية والكتابية وعلى الزخارف الحيوانية ونذكر على سبيل المثال النباتية زهرة اللالة وزهرة القرنفل، أما الهندسية فقد تنوعت بالمربعات والمثلثات ومن بين الخطوط شائعة في الفترة العثمانية خط الثلث.
- طرأت تجديدات من الناحية المعمارية فالفنان الجزائري لم يكتف بما هو موجود من زخارف المعمارية بل اقتبس عن الفن الأوروبي، أما من الناحية الفنية فقد تنوعت أساليبه وطرق زخرفته من حفر على الخشب ونحت على الرخام وغيرها.
- وعلى هذا الأساس فقد لعبت المدارس والزوايا خلال العهد العثماني دورا مهما في تثقيف المجتمع وتطويره، خاصة لكثرة الباحثين في البحث عنها، وتنوع خصائصها المعمارية والفنية.

- قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم حركات، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، كلية الآداب، الجمعية المغربية، ط1. دت.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980..
- ابن خلكان تقي الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة العربية بيروت، دت
- إسماعيل سامي، معالم الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

- أيمن شاهين سلام، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة لنيل الدكتوراه في شعبة التاريخ الإسلامي، جامعة طنطا، كلية الآداب، 1999.
- جيدة أحمد خالد، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، 2001.
- حسن حمودة القاضي، فن الزخرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972.
- حسين أمين، "المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1983.
- خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2007.
- رشيد بورويبة، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام، الجزائر، 1980.
- رشيدة شدرى معمر، "الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة المعيار، عدد 49، جامعة البويرة، 2020.
- الزركلي خير الدين، معجم الأعلام، لأشهر الرجال و النساء من العرب والمتعربين والمستشرقين، مجلد3، دم.
- زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ج3، دار الرائد العربي، بيروت، 1041 هـ/1981م.
- سامح كمال الدين، العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، 1 دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 1998.
- صالح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر وتاريخها ونشأتها، دار الغرب الإسلامي، ط2.
- صليحة بردي، "الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني دراسة الواقع والمعطيات"، مجلة الذاكرة، العدد11، جامعة الجيلالي عين الدفلى، كلية الآداب واللغات، 2018.
- الطيب العماري، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر، مجلة العلوم الإنسانية الاجتماعية، العدد 15، جامعة بسكرة، 2014.

- الطيب يوسف، الحضور الاجتماعي والسياسي للطرق الصوفية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث المعاصر، جامعة سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية.
- عاصم محمد رزق، خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.
- عبد الحليم طاهري، مدرسة صالح باي ومقبرته العائلية بحي سوق العصر بمدينة قسنطينة، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2008-2009.
- عبد القادر دحدوح، "الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني"، دراسة آثار الوطن العربي، الجزائر، دت.
- عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة عمرانية، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر2، معهد الآثار، 2010.
- فايزة بوخضار، مدارس المغرب الأوسط الزيانية والمرينية، دراسة تاريخية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2010-2011.
- الفقي عبد الرؤوف، معالم تاريخ الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، دت.
- فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1819، ج.2، دت.
- القرين عبد الجليل، السياسة التعليمية للدولة الزيانية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري قسنطينة، 2003-2004.
- كمال خليل، المدارس الشرعية في الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحديث المعاصر، جامعة قسنطينة، 2007-2008.
- لعرج عبد العزيز محمود، الزليج في العمارة الإسلامية في الجزائر، دراسة أثرية فنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1990.
- لعرج محمود عبد العزيز، "المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، دار الحكمة، الجزائر، العدد الأول، 1421هـ/2001م.
- لعرج محمود عبد العزيز، المدارس الإسلامية، العصور، م6 دار الميرخ للنشر، لندن، 1991.
- محمد السعيد قاصري، "المدرسة الكتانية بقسنطينة صرح ثقافي بصارع النسيان"، مجلة العصور الجديدة، العدد18، قسنطينة، 2015.

- محمد الشريك، "جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم بالجزائر"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، العدد الثامن، جوان، 2018.
- محمد حمزة إسماعيل الحداد، العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، كلية الآداب، جامعة الكويت، 2002.
- محمد حمزة إسماعيل بن حداد، المجلد في الآثار والحضارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة.
- محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العهد العثماني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974.
- مراد حديبي، الزوايا التيجانية بالجنوب الجزائري، دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
- معزوز عبد الحق و درياس لخضر، جامع الكتابات الأثرية العربية، مطبعة سومر، ج1، الجزائر، 2000.
- المقرئزي تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، الجزء الثاني، 1987، القاهرة.
- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2008.